KADHAYA TARIKHIA

قضايا تاريخية

ISNN :718X EISSN : 2802-6031

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/228

التاريخ الوطني والشخصية الوطنية " التاريخ ، التحديات والآفاق "

Title of the Presentation: "National History and National Identity: History, Challenges, and Perspectives"

أ.د/ عالم مليكة

جامعة الجيلالي بونعامة / خميس مليانة (الجزائر)

m.alem@univ-dbkm.dz

المجلد: 10 العدد: 01 السنة : جويلية 2025م الصفحات: 166- 185

تاريخ الاستلام: 2025/04/03 تاريخ القبول: 2025/1706 تاريخ النشر : 2025/07/26

* أ.د/ عالم مليكة

ملخص: يمثل النموذج التعليمي الجزائري أحد النماذج التاريخية الرائدة في العالم العربي والإسلامي ، والذي أسهمت فيه المؤسسات التعليمية في مختلف أطوارها قبل وبعد الاستقلال الوطني وكذا كتابات بعض مؤرخيها في مواجهة القوة الاستعمارية وسياساتها عن طريق القلم ، كوسيلة للنضال السلمي والكتابة للدفاع عن مقومات الشخصية الوطنية و الموروث الثقافي والحضاري الوطني ، الذي يشهد تراجعا ملحوظا في الآونة الأخيرة في درجة الاهتمام في أوساط المجتمع الجزائري عامة وفئة الطلبة والمثقفين على وجه الخصوص ، والذي بات يهدد مصير الأمة وآن الأوان لإعادة بعثه من جديد لتكون على رأس اهتمامات المدرسة الجزائرية ، الشخصية التاريخية منها.

كلمات مفتاحية: النموذج التعليمي ، الكتابات التاريخية ، الموروث الثقافي والحضاري ، الشخصية الوطنية ، الهوية الوطنية .

Abstract: The Algerian educational model represents one of the pioneering historical models in the Arab and Islamic world, with contributions from educational institutions at various stages before and after national independence, as well as writings from some of its historians in confronting colonial power and its policies through the pen, as a means of peaceful struggle and writing to defend the national identity and cultural and civilizational heritage. This heritage has witnessed a noticeable decline in recent times in terms of the level of attention it receives within Algerian society in general, and among students and intellectuals in particular.

Keywords : educational model, historical writings, cultural and civilizational heritage, national character, national identity.

مقدمة:

أنطلق في بحثي هذا من أقوال وشواهد لبعض المؤرخين الجزائريين ممن كان لهم الفضل الكبير في الدفاع عن الموروث التاريخي ، الثقافي والحضاري للأمة الجزائرية ، رغم الواقع المر الذي كانت تعيشه الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي وسيطرة الإدارة الاستعمارية على التراث والإرث المادي والمعنوي للجزائر أرضا وشعبا خلال حقبة وصفت بالمظلمة من تاريخ الجزائر مدة قارب القرن ونصف القرن (1830 الى 1962) .

ولعل هذه الحقبة الطويلة في ظل السياسات القمعية والوحشية للسلطة الاستعمارية الفرنسية قد أفقدت الشعب الى درجة ما فكرته أو قناعته بالتحرر من سيطرة الاحتلال وقيوده ، ومهما يكن من أمر فإن الجهاد الحقيقي ان لم يكن ينجح بالسلاح فقد ينجح أحيانا بالقلم.

حسب تعريف الأستاذ أبو القاسم سعد الله لمصطلح التاريخ بوجه عام على أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالأدب ، وأن كثيرا من المؤرخين بدؤوا أدباء لأن الأدب كفيل بشحن الفكر وصقل القلم وتوسيع دائرة المعرفة، أما التاريخ حسبه فيعرف بالفهم ويهدئ الانفعال، فيصبح ما هو حقيقة عند الأديب أسطورة عند المؤرخ وعليه فإن الباحث الموضوعي يستمد طاقته من نور الحكمة والبصيرة.

وعليه فإن إحياء الذكريات والاحتفاء بها دون فائدة إذا ما أدرنا ظهرنا للقيم الحضارية أو أن نعجب بأفكار وآراء البعض دون أن نطبقها في حياتنا الحاضرة ، و هي دعوة حسبه للتأمل في حاضر البلاد وعلاقتنا مع التاريخ.

فمن هذا الدافع ونظرا لأهمية التاريخ ودوره في تمتين وتوطيد العلاقة بين الوطن والذات وما يرتبط بها من قيم ومبادئ وأسس لبناء الشخصية والهوية الوطنية بما تحويه من لسان وعقيدة وانتماء حضاري فكري وثقافي وأعراف وأعراق.....تميز المجتمع الجزائري عن الفرنسي ، شحذت همم هؤلاء الأدباء والمؤرخون للدفاع عن تراث أجدادهم وايصاله للأجيال ، إذ يرى أحدهم "أن الأمم الكبيرة هي التي تنتج مؤرخين كبار".

ولعلنا من خلال هذا القول ندرك أن الظروف التي مرت بها الجزائر طيلة عقود ان لم نقل قرون أدت إلى صقل مواهب تلك الفئة العظيمة من الكتاب و المؤرخين الذين اهتموا بالكتابة التاريخية التي تهدف إلى تربية النشء و تكوينه تكوينا سياسيا وثقافيا يجعله دوما متمسكا بأصوله غيورا

على الحضارة التي ينتمي إليها ومن أمثال هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر كل من الشيخ توفيق المدني[1] ومبارك الميلي و عبد الرحمان الجيلالي[2] ممن كتبوا لصالح تاريخ الجزائر العام وهو ما كان يقتضي ذلك.

انه لمن المسلم به أن تاريخ بلد ما لا يعتبر تاريخا بالمعنى الذي نفهمه إلا إذا كتب بأقلام أبنائه لسبب بسيط هو أن هؤلاء أدرى من أي كان بمشاكل بلدهم وبتطوراته التاريخية التي مر بها عبر العصور، فضلا عن معرفتهم الدقيقة لزمان ومكان وقوع الحادثة التاريخية والظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وما يترتب عنها من نتائج.

وإذا أخذنا بهذا المبدأ فإلى أي حد ساهمت الكتابات التاريخية الجزائرية في الحفاظ على مقومات الامة وشعبه وثوابتها الوطنية وكذا ثقافته المجتمعية؟

1/ مصادر التاريخ الوطني واسهاماتها في كتابة التاريخ الوطني :

تختلف مصادر التاريخ الوطني ما بين ما الارث المادي وآخر لا مادي إضافة إلى ما يتمثل في المخطوط وكذا الشهادة الحية ، إذ يحتوي الأرشيف الوطني الجزائري على رصيد تاريخي هام خاصة ما يتمثل في سلسلة المحاكم الشرعية التي تشكل في حد ذاتها رصيدا تراثيا وطنيا و مصدرا تاريخيا هاما حيث تتضمن هذه الوثائق المجالات المختلفة الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية و الدينية و كذا المعاملات المختلفة التي كانت تتم داخل المجتمع الجزائري ، و التي تعبر في طياتها عن جذور الفكر التاريخي والإرث الثقافي و الحضاري للجزائر وهو ما تم اعتماده كمصدر أساسي في كتابة تاريخ الجزائر ، و ما يتعلق به كذلك من قيم أو مقومات للشخصية الوطنية أو ما يجمع المؤرخون أو الدارسون على تسميته بالثوابت أو رموز السيادة الوطنية للجزائريين.

كما احتلت فكرة كتابة تاريخ الجزائر منذ الاستقلال حيزا كبيرا في اهتمامات الدولة الجزائرية الرسمية وغير الرسمية، و عليه فقد أخذت عملية التدوين اهتماما بالغا لدى فئة المؤرخين و الدارسين و المهتمين بالعملية إضافة إلى بعض من صنعوا تلك الأحداث على غرار المجاهدين مثلا (1954-1962) ممن شاركوا في ثورة التحرير الوطنية ، فيما عرف بعملية التأريخ التي تشترك فيها الأطراف

المختصة و غير المختصة في تشكيله ويغلب عليه طابع الذاتية ، إلا أنه يختلف في طابعه عن التاريخ لأنه يقوم بتفسير الحدث ، و يكون باحتراف من المختصين لأن الأمر يتطلب منهجا وتقنيات لا تتوفر إلا في الباحثين الاكفاء و قد يغلب عليه الطابع الموضوعي .

وعلى هذا الأساس كانت عملية التدوين تتمحور أساسا حول كيفية التعامل مع الأرشيف في تفسير الأحداث التاريخية قصد تكوين استراتيجية هادفة لكتابة تاريخ الجزائر ضمن قواعد علمية أكاديمية من خلال كتابات أبنائها ،لأن الشعوب التي تعتمد على ما كتبه الآخر عن تاريخها شعوب خاملة على حد وصف أحدهم.[3]

أما الشق الثاني من البحث فيرتكز حول مسألة الهوية أو القيم والثوابت الوطنية الجزائرية في اهتمامات المؤرخين والكتاب الجزائريين خلال فترة الاستعمار مما كان له الدور الفعال في الحفاظ على ثقافة المجتمع الجزائري وتراثها الحضاري الذي يمثل أهم مقوم لهوية الأمة الجزائرية وشخصيتها الوطنية.

وقبل الحديث عن موضوع الهوية في الكتابات التاريخية الجزائرية نتطرق إلى التعريف بالهوية والثوابت وما تحمله من معاني ومفاهيم للوقوف على حقيقتها التاريخية.

2/ ماهية ومفهوم الهوية والقيم والثوابت الوطنية لغويا وإصلاحيا:

تعد مسائل الهوية والانتماء الفكري الثقافي و الحضاري و كذا القيم و الثوابت الوطنية أهم القضايا التي شغلت الرأي العام العربي والأجنبي على حد سواء ، وذلك فيما تعلق بمبدأ القومية التي دفعت الشعوب من أجلها ضريبة الدم وانعدام الأمن و السلام وهددت عن طريقها أوطانهم ، حيث يرتبط مفهوم الهوية إلى حد كبير بمصطلح القومية ، و هو الانتماء إلى الأمة الواحدة و الشخصية و الكيان والسيادة والاستقلال ، وتطرح مسألة الهوية بمختلف تفصيلاتها المرتبطة بالأمة من لغة و دين وثقافة وتاريخ....[4] ، وإن كان من الصعب تقديم تعريف محدد للهوية لاختلاف نظرة الباحثين حول هذا الموضوع.

الا أن مصطلح الهوية في عمومه يدل على الكيان أو الوجود لشخص ما أو شعب أو أمة ، كما أنها تتوقف على مقومات ومواصفات وخصائص معينة تمكن من إدارة صاحب الهوية بعينه ، وتنقسم إلى فردية وأخرى وطنية.

فالوطنية إذن وهي موضوع بحثنا هذا فهي مصطلح ارتبط أساسا بتمييز القوميات ابان القرن 19 م نسبة إلى الوطن أو الأمة، فهي مجموعة من الخصائص والملامح و المعايير التي تميز الأمة عن سائر الأمم أو الشعب عن غيره من الشعوب.[5]

كما تمثل القيم والثوابت الوطنية المرتبطة بالهوية أهم مقوم للأمة الواحدة والتي تضم مجموعة من القيم والمبادئ التي توارثتها الأجيال وضحت من أجلها.

و قد اختلف اللغويون وكذا الباحثون حول تحديد مفهوم خاص بالقيم، إلا أن الكثير منهم أجمعو على أن المفهوم اللغوي لكلمة قيمة و هي جمع قيم هي مادة تتعلق بعدة معان تدور في غالبيتها حول قيمة الشيء أو مقداره أو ما معناه التقويم و الاعتدال و الاستقامة و عدم الميل و الثبات و التحكم في الأمور ومن ذلك قوله تعالى: " ذلك الدين القيم "[6] أي الثابت الذي لا يتغير و المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. [7]

أما مقومات الهوية فتتمثل في اللغة و الدين أساسا إضافة إلى التاريخ المشترك و الثقافة المشتركة .[8]

حيث يقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس في هذا الصدد حول الهوية "لا يتوقف تكوين الأمة على اتحاد دمها ولكنه يتوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلا م والآمال" .

وعليه فإن القيم أو الثوابت هي مجموعة من القواعد و المبادئ التي تقوم عليها الحياة الإنسانية .[9]

و أن قيمة الشيء هي قدره وقيمة المتاع ثمنه وقيمة الانسان هي استقامته وثباته على الأمر.[10]

كما تشمل كذلك القيم الأخلاقية كالعقل والثقافة والابداع والقيم الجمالية كالجمال والحسن ... ، وقيم

منطقية كالصواب و التمييز بين الخطأ والصواب و الحق و الباطل بالإضافة إلى قيم أخرى سياسية ، اقتصادية واجتماعية و أعلاها درجة هي القيم الروحية و الإنسانية.[11]

ومن هذا المنطلق ووفقا لهذه التعابير والمصطلحات يمكن لنا تحديد أهم القيم والثوابت الوطنية التي ترتبط بالهوية والشخصية الجزائرية ودور المؤسسات والمنظمات والهيئات والأحزاب في الدفاع عن مكانة القيم والثوابت الوطنية في المجتمع الجزائري ابان فترة الاحتلال ومدى نجاح الجزائريين في المحافظة على مقومات الأمة والوطن الجزائري.

3 / مكانة القيم والثوابت الوطنية في المجتمع الجزائري ابان العهد الاستعماري من خلال التاريخ الوطني:

أجمع الباحثون والمؤرخون و الدارسون في الشأن الجزائري أن القيم الروحية والأخلاقية والدينية تمثل أسمى مظاهر القوة في المجتمع الجزائري باعتباره مجتمعا محافظا لا يندفع بسرعة إلى تغيير تقاليده و عاداته الموروثة جريا وراء المستحدث من الأمور ، و لعل هذه الخاصية هي التي جعلته يحتفظ بكيانه بما فيه من تراث ثقافي وديني ولغوي وحضاري أثناء فترة الاحتلال الطويلة رغم ما تعرض له من حرب وقمع وتشريد من خلال سياسات فرنسا الاستعمارية الرامية إلى اذابته في الكيان الفرنسي العام.[12]

وكما أن اللغة العربية هي جزء من هذا الكيان و أحد مقوماته فقد كان الدفاع عنها هو جزء من مقاومة الجزائريين للاستعمار عن طريق تشجيع التعليم بها فيما سمي بالتعليم العربي الحر الذي لعبت الزوايا والكتاتيب فيها دورا هاما في الحفاظ عليها من الاندثار و المسح الاستعماري لما لها من قيمة حضارية وتاريخية مهمة في المجتمع الجزائري، حيث كانت هذه المؤسسات تجمع بين العبادة والتعليم والتوجيه والإصلاح في آن واحد ، فكانت بمثابة عمل الجمعيات الثقافية و الخيرية

من تربية للشباب و الوعظ والإرشاد للكبار ، و بث الروح الدينية الصحيحة في النفوس وكفالة الأيتام وإيواء المساكين ، و ضيافة المسافرين وأبناء السبيل[13]، فاستطاعت بذلك أن تحقق مكانة لها في نفوس الجزائريين ، باهتمامها بشؤون المجتمع ومالها من دور في تربية النشء عن طريق التعليم وتحفيظ القرآن الكريم و نشره بين الأجيال المتعاقبة وإرثه الثقافي و الحضاري الذي ساعد على حماية مرتكزات المجتمع الجزائري وثوابته.

فكانت هذه المؤسسات تمثل حصنا منيعا للغة والثقافة العربية والإسلامية ، كما عملت على نشر الإسلام الصحيح بين أوساط الشعب والتقريب بين طبقاته المختلفة بين الأغنياء والفقراء والعلماء والأميين فانصهروا في بوتقة واحدة ، كما كان لها الفضل في التوفيق والإصلاح بين الجزائريين ونبذ الخلافات وفض النزاعات والخصومات بينهم .

التي كانت تقوم بها هذه المؤسسات في المجال العلمي، وانما تعداه إلى المجالات المتعددة والخاصة بشؤون الامة والتكفل بقضايا الجزائريين كما سبق الإشارة إليه ، ولا نستغرب حين نقول أن مكانة الزوايا والكتاتيب في المنظور الفرنسي كان كبيرا ، وذلك لأن هذه المؤسسات بمافيها الزاوية أو الكتاب تمثل بالنسبة لهم (الفرنسيين) بمثابة مدرسة حربية لما تلعبه من دور روحي وديني وتعليمي [14]، يهدد أمن فرنسا في الجزائر، وأن تخريج دفعة من المتعلمين بها يعتبر بمثابة فرقة من الجيش أو أخطر منها.[15]

ومن خلال ذلك يتبن لنا مدى أهمية هذه المؤسسات في تقويض دعائم المشروع التغريبي الفرنسي ، وأن جوهر الصراع بين الجزائر وفرنسا لم يكن صراعا عسكريا أو اقتصاديا بحتا بل تعداه إلى الصراع الجوهري بين الغرب الصليبي والإسلام والمسلمين للقضاء على مقومات الشعوب الإسلامية ، فكانت الجزائر إحدى تلك الأقطار التي وجهت لها سهام الغرب الصليبي ، في إطار مشروع فرنسا الادماجي الهادف إلى القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية لما تحمله هذه المقومات من دلالات حول السيادة الوطنية وما يرتبط بها من تاريخ، وثقافة وأسس و مبادئ...

كما أن وجود فرنسا في الجزائر على حد زعم أحد مؤسسيها أنها جاءت إلى الجزائر لتقديم الأنوار للحضارة التقليدية (الجزائرية) واستبدالها بطابع الثقافة و الحضارة الأوربية الغربية[16].

4 / الهوية الوطنية الجزائرية في المشروع التغريبي الاستعماري الفرنسي من خلال الكتابات التاريخية الفرنسية:

ترى الكثير من الكتابات التاريخية الفرنسية أن وجود فرنسا في الجزائر كان لتقديم الأنوار لحضارة تقليدية يقصد بها الحضارة الجزائرية، واستبدالها بطابع الثقافة و الحضارة الأوربية الغربية[17].

ومنه فقد ارتكزت جهود معظم المؤرخين الى جانب جهود السلطة العسكرية الى التركيز على المجال التاريخي والثقافي للجزائر في اعداد المشاريع الادماجية على الصعيد الثقافي لمحو الملامح المميزة للمجتمع الجزائري ، وتبعا لذلك وجهت سهامهم لضرب الثقافة العربية الاسلامية التي تمثل في نظر الاستعمار القوة المحركة الرئيسية المضادة للمشروع الاستعماري الهادف إلى محو الشخصية الجزائرية ، وان الضراوة التي ميزت سعي المستعمر لتحطيم مقومات الشعب الجزائري بشكل مباشر نابعة من نفس الإرادة التي عمل بها لتفكيك المجتمع وتحويل الجزائر الى مقاطعة فرنسية .

كما هدفت محاولة المسخ الفرنسية الثقافية كذلك إلى خنق اللغة العربية وتشويه الإسلام، عن طريق التعليم الفرنسي الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى محاربة الهوية الجزائرية... ، وكذلك لأن تعليم الثقافة الفرنسية لم يستمل إليه الجزائريين ، ولم تستطع فرنسا بكل جهودها وجميع أساليبها من خلاله استمالتهم ، لوعيهم بأن السياسة التعليمية الفرنسية لم تكن تهدف إلى تثقيفهم ، لأن التعليم حسب الأطروحة الفرنسية كان يفضي أساسا الى نشر الثقافة الفرنسية في الأوساط الجزائرية وتحطيم الثوابت الوطنية، ذلك المشروع الذي عارضه المعمرون بشدة ، وفي نظرهم أن تعليم الجزائريين يشكل خطرا على الاستعمار الاستيطاني ويهدد أمنهم .[18]

و أسهمت الصحافة الاستعمارية على غرار جريدة (المبشر،) في كتابة تاريخ الجزائر من وجهة النظر الاستعمارية ، حيث أن اقتران الصحافة بالتاريخ بدأ مع أواخر القرن 19 م الا أنها كرست

كتاباتها لخدمة مصالح الاحتلال من عسكريين ومعمرين ، كما تعد ضربا من ضروب العنصرية الفرنسية بدفاعها عن المبادئ الفرنسية ومحاربة عروبة الجزائر واسلامها[19].

5/ نماذج من الكتابات التاريخية الجزائرية للدفاع عن الهوية الوطنية الجزائرية وثوابتها :

أ / الهوية الوطنية الجزائرية في كتابات العلماء المسلمين الجزائريين :

أولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال مشروعها النهضوي الإصلاحي إلى محاولة التوفيق بين فئات الشعب الجزائري لرأب أي صدع من شأنه اضعاف الأمة الجزائرية الواحدة وتسخير جهودها لمحاربة ومواجهة سهام العدو المادية والمعنوية من سياسات وقوانين وسلوكيات هدفت في مجملها إلى ضرب أسس الأمة وركائزها من خلال بعث واحياء القيم الروحية والمعنوية للمجتمع الجزائري بما تحمله من تاريخ ولغة ودين وأعراف وطنية وبالتالي حماية مصير الأمة وسيرورتها.

حيث كان للجمعية من خلال نشاط وكتابات علمائها وشيوخها وخريجي مدارسها وكذا اعلامها الصحفي دور في نهضة الروح الوطنية فكانت بمثابة مدارس للوطنية وأغلب عناوينها هي الإسلام والجزائر، مساهمة منها لزرع الروح الوطنية في النشء[20] الجديد، وإحداث حركية ثقافية وفكرية كان لها الفضل في إيقاف عجلة التدمير للقيم الفكرية والعقائدية للمجتمع الجزائري المسلم ، من خلال عمليات التجهيل تارة وتأثير الثقافة الفرنسية التغريبية تارة أخرى[21].

ب/ الهوية والثوابت الوطنية من خلال كتاب "تاريخ الجزائر العام " لعبد الرحمان الجيلالي:

يعتبر دراسة التاريخ أعظم درس لتتبع أحوال الماضي لخدمة المستقبل ولرصد مآثر الماضي وتجنب أخطائهم وسقطاتهم والاقتداء بهم، لأن التاريخ يعيد نفسه كما قيل.

اذ يرى الشيخ العلامة عبد الرحمان الجيلالي ، أن التاريخ وحده هو الذي يعطينا فكرة واحدة عن سير المدنية والثقافة التي مر بها الوطن خلال العصور و له دور فاعل في سيرورة العملية الثقافية وتنمية الأفكار وتوسيعها.

حيث ركز في كتاباته عن تاريخ الجزائر خاصة في العصور الإسلامية حسبه في ذلك الاسهام في توعية الشباب الجزائري المسلم، ودعوته إلى تمجيد تاريخه الذي يصفه باللامع والعظيم، والثقة بمستقبله الزاهر النير، مع نفخ روح القومية فيه ، واعداده لوصل حاضره بماضيه ، وحتى تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة وهي المحافظة على شخصيته وميزته وتقديس أسلافه الأمجاد، والتمسك بدينه والعمل على الإشادة بوطنه.....[22] .

ويعتقد في ذلك أنه خلص تاريخ وطنه الماجد من أن يبقى مكتوبا عرضا ، ضمن تاريخ الأمم والشعوب الأقطار المستعمرة عوضا أن يكون فصلا ملحقا بكتاب ، ويقصد بذلك كتابات المؤرخين المستعمرين [23].

كما يرى أبو القاسم سعد الله من خلال تقديمه لكتاب عبد الرحمان الجيلالي حول تاريخ الجزائر أن أهمية التاريخ بالنسبة للجزائريين لم يكن يخلوا من الروح الدينية ، إذ كان للاستعمار الفرنسي مبررات مرجعية تخفى أسبابا اقتصادية وسياسية وتاريخية واستراتيجية أفرزتها التحولات الكبرى التي جاءت بها الثورات الثقافية ، ويصف أبو القاسم سعد الله الأوضاع العامة للجزائر خلال الاحتلال أنها كانت تعيش كسوفا ثقافيا وانحطاطا اجتماعيا على غرار معظم المناطق العربية والإسلامية [24].

وأن التاريخ في الخمسينيات كان يكتبه الثوار وليس المؤرخين، فالتقارير والمحاضر أو الرسائل والبيانات الرسمية والتعليمات والصحف اذ تدل كلها على أن ميدان التاريخ قد تحول إلى ساحة الجبال والبراري أو الشوارع الضيقة في المدن الأهلية وليس إلى قاعات الجامعة ولا مكتبيها ومختبراتها [25].

ج/ – الهوية الجزائرية من خلال كتابات محمد توفيق المدني حول الجزائر " هذه هي الجزائر " و" كتاب الجزائر "أنموذجا:

يلح توفيق المدني من خلال كتابيه " على ضرورة تذكير الأجيال بطبيعة الاستعمار الفرنسي الذي احتل الجزائر منذ 1830 إلى غاية ثورة التحرير الوطني، وأن فرنسا التي تدعي أنها ورثية ثورة 1789 وورثته بيان حقوق الانسان والمواطن، قد قامت بعمل شنيع لا نظير له في تاريخ البشرية وبلغت حد تجريد الأمة بكاملها من صفة " الشعب" تحت دعوى أن الجزائريين ما كانوا من الأيام شعبا، وأنهم ما كان لهم وجود إلا كجماعات بشرية متفرقة خاضعة لنظام الاندجينا. وأنه لم تجرؤ أي دولة استعمارية أن تبلغ من الأعمال التي تندرج في مسميات العنصرية والاسترقاق ما بلغته فرنسا التي كانت ترمي إلى طمس شخصية الجزائري ، أن تمحو ذاكرته أن له وطنا وأن له ثقافة و أن له تاريخا [26].

ويرى المدني أن العالم و العالم العربي بالأخص لا يعرف عن هذا الشعب و لاعن بلاده الشيء الكثير ، فالاستعمار الفرنسي أقام بين العالم و بين الجزائر التي يصفها بالثمينة الطيبة من أرض العروبة والإسلام جدارا حديديا ، أراده أبديا و أراده الله مؤقتا ، حيث تعمد الاستعمار محق معالمه و طمس تاريخه و محو جنسيته و إعدام شخصيته كي لا يذكر ذلك في عالم العروبة و لا ضمن بلاد الإسلام و لا بين صفوف الأمم الحرة ، إلا أنه و رغم وسائل البطش و القوة العسكرية الرهيبة تجاه الجزائريين المناضلين و من أجل ذلك وحسبه كانت كتاباته حول الجزائر لتقديمها للجزائريين و العالم العربي بوجه خاص و العالم بوجه عام لتقويض دعائم الاحتلال و مد جسور الأخوة الصادقة و تمتين أواصر الأخوة و التضامن و الكفاح المشترك للتحرير من قيود الاحتلال و سياساته الوحشية [27].

حيث أصدر المدني "كتاب الجزائر " سنة 1932 معبرا من خلاله عن ردود الأفعال الوطنية تجاه الاحتفالات الاستعمارية المخلدة للذكرى المئوية له بالجزائر من 1830 الى 1930 ، لدحض فكرة الإدماج و رفض قانون الإلحاق (جوان 1834) الذي تقرر بموجبه أن تصبح الجزائر مقاطعة فرنسية فكان الكتاب موجها لذلك .

واستهل كتابه بالتذكير بأهمية معرفة التاريخ و الواقع رافعا شعار" الإسلام ديننا ، العربية لغتنا والجزائر وطننا " واصفا فئة الشباب الجزائريين من المثقفين ثقافة فرنسية بالفارغين ذهنيا من الناحية التاريخية ، لجهلهم بتاريخهم الوطني و انجذابهم نحو التاريخ الدخيل حسب وصفه و نفورهم من تاريخ الجزائر المشوه[28] ، و كذلك من المؤرخين ممن خانتهم المراجع التي تربطهم بأصالتهم .

كما يؤكد من خلال كتاباته على إسلام الجزائر و عروبتها و انها لم تكن فرنسية و لن تكون و أن أمالها هي الحرية و الاستقلال [29]، و استدل المدني ليعطي وزنا و قيمة لعلمه بقول ابن باديس في نضاله مع فرنسا للحصول على الحقوق " بأن العلاقات لا تنظم ولا تنمو (يقصد مع المستعمر) إلا إذا تعاملنا بصفاء على قاعدة : "أنت أنت " و" أنا و أنا "، أما أن نصبح أنت فذلك من المستحيل[30] .

وأنه (المدني) يرفض الاندماج و أكد أنه " لم ير في التاريخ العالمي أمة من الأمم وقع عليها الاحتلال فاندمجت بكليتها في المحتل و أصبحت و إياه حزءا واحدا و ذلك مخالف لنواميس الطبيعة على حد وصفه [31].

ويرى المؤرخ الفرنسي "أجرون " : " أن الميلي في كتابه " تاريخ الجزائر في القديم والحديث" و كذا المدني هما أول من ألفا في التاريخ الوطني الجزائري بالعربية و يقصد "كتاب الجزائر"، الذي ألفه المدني سنة 1931 كما سبق الإشارة اليه ، والذي كان يحمل فوق غلافه شعار الجمعية الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا) .

كما أحدثت تعابير جديدة تحمل معاني جديدة لم يألفها الجزائري و هي وطن وأمة جزائرية و شعب .... إلخ .

اذ لم يكن كتاب المدني للتأريخ و رصد المحطات التاريخية للجزائر عبر العصور بقدر ما كانت دعوته من خلال كتاباته الى ضرورة التمسك بتاريخ الأمة و الوطن الجزائري و الإرتباط بتاريخه .

كما عبر المدني كذلك من خلال دفاعه عن الجزائر و المدنية العربية الإسلامية و في كثير من المحطات التاريخية من خلال محاضراته على الهوية الوطنية الجزائرية و أركانها بأنه دين يتبع الإسلام و لغة يختارها العربية باعتبارها لغة للعلم و الأدب و الشعر و الحكمة و الداعي إلى الضرورة للدفاع أو المحافظة على الذات و الدفاع عن الاستقلال في دائرة العروبة و الإسلام و من أجل المحافظة على المدنية العربية الإسلامية ضمن أقطار الإسلام المسيحية الأمة العربية و الإسلامية [32].

د/ تاريخ و مواقف مع المفكر والأديب "عبد الله الركيبي " حول الهوية و الثقافة الوطنية الجزائرية :

حسب عبد الله الركيبي أنه : " رغم أن الكتابات التاريخية التي تناولت موضوع الهوية و الثقافة الجزائرية قديمة إلا أن قضاياها لا تزال حية و مازلنا نخوض في الحديث فيها باستمرار لارتباطها بالحياة الثقافية والفكرية و السياسية و الحضارية للجزائريين" .

وحسبه كذلك: " فان الدفاع عن الهوية أو صراع الهوية لا يزال يدفعنا إلى الكتابة بل يكاد يطغى على كثير من ديباجات الأفلام في العقود الماضية ، و تعبيرا عن إيمانهم بها و امتدادها عبر التاريخ " [33].

فالثقافة هي التعبير الأصيل و الحي عن الهوية ، كما أنها تعبر عن اللغة العريفة مثلما تجسدها العقيدة الروحية المتمثلة في الإسلام فضلا عن الوطنية و التراث الثقافي و يقية العناصر الأخرى التي تجعل من الجزائر أمة عظيمة و حضارة شامخة على مر الزمن [34] .

و من هنا كان الاهتمام بالثقافة من قبل المثقفين و المفكرين و المؤرخين بالرد على المشككين في هذه الثقافة (العربية) و في عراقتها و دورها في الإبقاء على الكيان الجزائري رغم وسائل الاحتلال وأساليبه المختلفة في القضاء عليه ، وأن الصراع الثقافي يعود تاريخه إلى الماضي لما كانت تعيشه الثقافة إبان فترة الاحتلال و التي كرست اضطراب النظرة لموضوع الهوية بين المثقفين الوطنيين المغيبين و المهمشين على حد تعبير ركيبي، وبين دعاة الثقافة التغريبية التي

حجبت عنهم الرؤية التاريخية مما دفعهم إلى التنكر لجذورهم و معا داتهم للثوابت الوطنية و في مقدمتها اللغة العربية التي هي عنوان الثقافة و رمزها الأصيل"[35].

ويرى كذلك أن التكامل الثقافي العربي هو دفاع عن هويتنا الشاملة كما أنها تطلع إلى المستقبل الواحد[36]،

و أن الوطنية لا تتجزأ و أن الولاء لا يتجزأ و الانتماء إما أن يكون كاملا أو لا يكون ، وحسبه أن اليوم إذا كنا نرفع شعارات الديمقراطية يقصد(بعد الاستقلال) و ذلك للتمييز بين الوطن و غيره لا أن نسوي بينهما ، و لا أن نسوي بين اللغة الأم و بين اللغة أو اللغات الأجنبية (يعني الفرنسية) ، كما يدعو إلى التعامل مع كافة الثقافات التي تساعد على إثراء التجربة و تنمية الوعي و الفهم الجيد للحياة و لكن بشرط أن لا تصبح بديلا لأصل وبديلا للغتنا و ثقافتنا على حد تغييره بدعوى الديمقراطية أو غيرها .

و يطرح أسئلة تكاد تكون منطقية بالنظر إلى سياسة المستعمر و هي هل يمكن الاختيار بين تاريخ الوطن و بين تاريخ الغير ؟ هل يحق الاختيار بين الجزائر وطنا و بين غيره ؟ أو اختيار عقيدة غير التي اختارها الشعب الجزائري منذ قرون ؟ هل الفرنسي لو طرحت عليه هذه الأسئلة و هو لن يقبل طرحها أصلا يرضى بغير الفرنسية لغة و بغير فرنسا وطنا و بغير الحضارة العربية حضارة ؟ [37]

كما يرى أن بعضهم من بينهم المعربين بالانغلاق ليفسروا نظريتهم و يؤكدوا أفكار من سبقهم من المنظرين الفرنسي في مناهجهم التي استخدمت لتحطيم شخصية الشعب و هويته الوطنية بدافع ما يسمى الديمقراطية .[38]

خاتمة :

بالرغم من تطور الكفاح مع تطور الزمن و الشعوب فإن الجزائري يفرط في كل شيء عزيز في هذه الحياة إلا في دينه و جنسيته التي يراها جزءا من عقيدته .

ففي فترة الثلاثينات من القرن العشرين و في خضم المقاومة السياسية في ظل حملة الإدماج المسعورة التي تبنتها بعض الاتجاهات اعتمادا على تشجيعات فرنسا و قرارتها ، تهاطلت العرائض (الشكاوي) على وزير الداخلية الفرنسي الذي جاء الجزائر في جولة استطلاعية عن سياسة الاندماج التي تزعمها (موريس فيوليت) الوالي العام السابق اذ ذاك ، و النائب البرلماني ، مذكرة هؤلاء بوعودهم السابقة بمحافظة الجزائريين لدينهم و تقاليدهم القومية و يعني بذلك معاهدة (5 جويلية سنة 1830)، و يرجون من عدالتهم التعهد بالبرنامج المذكور فيما يخص الجنسية و الدين و الأحوال و المآل [39] ، أنه مجتمع عربي مسلم شديد الاعتزاز بعروبته قوي التمسك بإسلامه [40].

وأنه مجتمع محافظ لا يندفع بسرعة إلى تغيير تقاليده و عاداته ، الموروثة جريا وراء المستحدث من الأمور ، ولعل هذه الخاصية هي التي جعلته يحتفظ بكيانه بما فيه من تراث ثقافي و ديني ولغوي وحضاري ، أثناء فترة الاحتلال الطويلة ورغم ما تعرض له من حرب شعواء من الاستعمار الفرنسي بقصد تحطيمه حتى يسهل عليه تنصيره و فرنسته و بالتالي إذا بته في الكيان الفرنسي العام .[41]

الهوامش:

[1]– للمزيد : أنظر محمد توفيق المدني ،كتاب "هذه هي الجزائر" ، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر، طبعة خاصة ، وزارة المجاهدين ، 2010 .

[2] – كتاب "تاريخ الجزائر العام" لصاحبه الشيخ عبد الرحمان الجيلالي الذي يتضمن خمس أجزاء تشتمل على تاريخ الجزائر في جميع أطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والأدبية والفنية والاقتصادية والعمرانية.....، وكانت

عنايته أكثر بتاريخ الجزائر الإسلامي وحضارته لتعريف الشباب المسلم الجزائري بتاريخ وطنه ودعوته الى الاعتزاز بهويته ليدافع عنها ويتمسك بعروبتها،

انظر : عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة ، سلسلة تاريخ الجزائر العام، ط 2014.

[3] – حميدة عميراوي، التاريخ الوطني الجزائري في مفهوم التاريخ والتأريخ، جامعة الأمير عبد القادر، الندوة العلمية الدولية حول "كتابة التاريخ الوطني" ، قسنطينة ، أكتوبر 2010 ، ص 25

[4] – رضوان السيد، مفاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت، دار المنتخب العربي، 1993، ص 36-37

[5] – أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات، د، ط، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر د، ت.

[6]– سورة الروم، الآية 30.

[7]– محمد عبد الفتاح الخطيب، قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة ع 139 ط1، دار الكتب القطرية، الدوحة ، قطر ، سبتمبر 2010، ص 19

[8]– جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 1994، ص 106.

[9]– شوقي ضيف، معجم الوسيط معجم اللغة العربية،ط4 ، 2004 ص 769 للتوسع أكثر أنظر : محمد كرم ابن المنظور ، لسان العرب المجلد الخامس ، ط1، 1997، دار المعارف القاهرة ، ص 1783.

[10]–ابن منظور مرجع سابق، ص 1783

[11] – رياض بودلاعة، القيم الديمقراطية في الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962 ، رسالة ماجيستير، التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، 2005، ص 200.

[12] – رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط5 2001، Edition ANEP، ص 42.

[13] –يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، الجزء الأول ، ثورات القرن19 م ، ط2 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996 ص 134 .

[14] –محمد الطاهر العدواني، الزاوية تفود المقاومة وتشارك في حرب التحرير ، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني ، منشورات وزارة المجاهدين ، الجزائر 2007 ص 69.

[15] – جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830 – 1944 ، مركز الدراسات التاريخية ....2007، ص 13

[16] – شارل روبير آجرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حرب التحرير 1954 ، المجلد الثاني ، ترجمة وتحقيق : عيسى عصفور ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1982، ص 245.

[17] – نفسه ، ص 245

[18] – آجرون مرجع سابق ، ص 395.

[19] – للمزيد عد الى زهير احدادن ، " مساهمة الصحافة في كتابة التاريخ " ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، صص85- 96 .

[20]– كمال خليل، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر التأسيس و التطور،1850 – 1951 ، قسم التاريخ ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، ماجستير التاريخ ، المجتمع المغاربي الحديث والمعاصر ، ص 33.

[21] – أبو القاسم سعد الله " تدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1930-1954 مجلة الثقافة العدد 79 الجزائر جانفي – فيفري 1984 ص 07 . للمزيد أنظر: أحمد بن نعمان " وضع اللغة العربية من محنتها الكولونيالية إلى اشراقة الثورة التحريرية، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية دار الأمة، الجزائر 2005 ، ص 235.

[22] – عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء الأول ، دار الأمة ، 2007 ، طبعة 2014 ص26

[23] – نفسه ، ص27 .

[24] – أبو القاسم سعدالله في تقديمه لكتاب تاريخ الجزائر العام ، مرجع سابق ، ص2

[25]– عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ، ص16 .

[26] – أحمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر، مرجع سابق ، المجلد 8 ، ص 6.

[27] – المدني ، هذه هي الجزائر ، مرجع سابق ، ص 20-21 .

[28] – المدني ، كتاب الجزائر ، دار الكتاب للنشر ، البليدة، الجزائر ، الطبعة 2 ، طبق الأصل 1382-1963 ص 373

[29] – للمزيد أنظر: المدني ، كتاب الجزائر، مرجع سابق .

[30] – نفسه ، ص 330 .

[31] – المدني ، كتاب الجزائر ، مرجع سابق ، ص329 .

[32] – للمزيد أنظر : آثار الأستاذ المدني : محاضرات في اللغة و الفكر و التاريخ ، المجلد العاشر ، عالم المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر 2010 ص ص 134-138 .

[33] – عبد الله الركيبي ، " الهوية بين الثقافة والديمقراطية " ، دراسات ومقالات ، دار الكتاب العربي ، ط 1332 هـ الموافق ل 2011م ، ص27 .

[34]– نفسه، ص80 .

[35] – نفسه ، صص7 – 9 .

[36] –نفسه، ص ص 7-8-9 .

[37]– الركيبي، " بين التعريب والتغريب " مقال منشور في مجلة الشعب ، جوان 1989 للمزيد أنظر : نفس الكتاب ، الهوية بين ..... مرجع سابق ص 113 -114 .

[38] – نفسه ، الهوية بين الثقافة و الديمقراطية ، مرجع سابق ص ص 114-115 .

[39]- عبدالرحمان بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر ، الفترة الأولى 1920 - 1936 ص 46 .

[40]- رابح تركي ، مرجع سابق ، ص 42 .

[41]- نفسه ص 44 .

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر:

القرآن الكريم ، سورة الروم.

الكتب:

1.محمد كرم ابن المنظور ، لسان العرب المجلد الخامس ، ط1، 1997، دار المعارف القاهرة .

المراجع :

1.محمد توفيق المدني ، كتاب "هذه هي الجزائر" ، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر، طبعة خاصة ، وزارة المجاهدين ، 2010 .

2 .عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة ، سلسلة تاريخ الجزائر العام، ط 2014.

3. حميدة عميراوي، التاريخ الوطني الجزائري في مفهوم التاريخ والتأريخ، جامعة الأمير عبد القادر، الندوة العلمية الدولية حول " كتابة التاريخ الوطني" ، قسنطينة ، أكتوبر 2010 .

4. رضوان السيد، مفاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت، دار المنتخب العربي، 1993.

5. أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات، د، ط، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر د، ت.

6.محمد عبد الفتاح الخطيب، قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة ع 139 ط1، دار الكتب القطرية، الدوحة ، قطر ، سبتمبر 2010.

7. جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 1994.

8. شوقي ضيف، معجم الوسيط معجم اللغة العربية،ط4 ، 2004 .

9. رياض بودلاعة، القيم الديمقراطية في الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962 ، رسالة ماجيستير، التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، 2005.

10. رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط5 Edition ANEP ، 2001.

11.يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، الجزء الأول ، ثورات القرن19 م ، ط2 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996 .

12.محمد الطاهر العدواني، الزاوية تفود المقاومة وتشارك في حرب التحرير ، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني ، منشورات وزارة المجاهدين ، الجزائر 2007 .

13.جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830 – 1944 ، مركز الدراسات التاريخية ....2007.

14.شارل روبير آجرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حرب التحرير 1954 ، المجلد الثاني ، ترجمة وتحقيق : عيسى عصفور ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1982.

15.زهير احدادن ، " مساهمة الصحافة في كتابة التاريخ " ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

16.كمال خليل، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر التأسيس و التطور،1850 – 1951 ، قسم التاريخ ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، ماجستير التاريخ ، المجتمع المغاربي الحديث والمعاصر .

17.أبو القاسم سعد الله " تدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1930-1954 مجلة الثقافة العدد 79 الجزائر جانفي – فيفري 1984. للمزيد أنظر: أحمد بن نعمان " وضع اللغة العربية من محنتها الكولونيالية إلى اشراقة الثورة التحريرية، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية دار الأمة، الجزائر 2005 .

18.عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء الأول ، دار الأمة ، 2007 ، طبعة 2014 .

19.المدني ، كتاب الجزائر ، دار الكتاب للنشر ، البليدة، الجزائر ، الطبعة 2 ، طبق الأصل 1382-1963 .

20.آثار الأستاذ المدني : محاضرات في اللغة و الفكر و التاريخ ، المجلد العاشر ، عالم المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر 2010 .

21.عبد الله الركيبي ، " الهوية بين الثقافة والديمقراطية " ، دراسات ومقالات ، دار الكتاب العربي ، ط 1332 هـ الموافق ل 2011م .

22.الركيبي، " بين التعريب والتغريب " مقال منشور في مجلة الشعب ، جوان 1989 .

23.عبدالرحمان بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر ، الفترة الأولى 1920 -1936 .